محمود عباس «أبو مازن» /تتمة

السؤال الأساسي: لماذا اندلعت الانتفاضة؟

لقد اندلعت أكثر من انتفاضة في عهد السلطة الفلسطينية. والانتفاضة الأخيرة انفجرت لعدة أسباب، يمكن حصرها بـ:

أولا: زيارة أرئيل شارون المسجد الأقصى عندما كان رئيساً للمعارضة اليمينية في إسرائيل.

ثانياً: فشل المفاوضات في كامب ديفيد.

ثالثاً: الاستفزاز المتواصل بسبب زيادة وتائر الاستيطان، ومصادرة الأراضي.

الأسباب المذكورة أعلاه مجتمعة مثلت الأساس الموضوعي لانطلاق شرارة الانتفاضة. فزيارة شارون أثارت غضب الشعب الفلسطيني وعموم شعوب العالمين العربي وإسلامي لأسباب غنية عن البيان ترتبط بمشاعرها الدينية والوجدانية حيال القدس ومقدساتها، وقد جاءت هذه الزيارة كما هو معلوم بعد فشل مفاوضات كامب ديفيد، وما نشأ بعدها من أجواء متوترة ومحتقنة وخيبة أمل من المفاوضات وخيار السلام، خاصة أن الزيارة المذكورة حملت رسالة يمكن فهمها كمحاولة لتثبيت، وبالقوة ووفق سياسة الأمر الواقع التي تتبعها إسرائيل، ما طرح آنذاك في كامب ديفيد، عن معادلة لكم فوق ولنا تحت، بخصوص المسجد الأقصى.

والانتفاضة تعريفاً هبة جماهيرية شعبية تستعمل الأساليب والأسلحة البسيطة لتعبر عن احتجاجها على الاحتلال وسياساته الغاشمة. وهذا ما حصل في البداية، لذا فقد تعمدت إسرائيل الرد بقوة، السلاح وبأقصى ما يمكن. غير أن الانتفاضة ظلت لفترة قصيرة تستعمل الحجر والتظاهرة والاحتجاج، ثم دخلت طور إطلاق النار من المدن في الهواء، وهذا أدى إلى ردود فعل اسرائيليه لتدمير المنازل الفلسطينية والهجوم على الأحياء السكنية.

لقد تحفظت على هذا التطور ولم أخف رفضي إياه، لأنه أساء إلى المدنيين الفلسطينيين وجلب لهم وعليهم ردود فعل إسرائيلية عنيفة، وألحق بهم وبمصالحهم أضراراً فادحة. ثم استفحلت هذه الظاهرة وانتقلت إلى طور تنفيذ عمليات ضد المدنيين في العمق الإسرائيلي، وهو ما فاقم الخطأ سالف الذكر ورفعه إلى مستوى بالغ الخطورة ، لأن ضرب المدنيين في العمق الإسرائيلي أدى إلى حالة استقطاب جديدة في المجتمع الإسرائيلي لصالح شارون، إذ تحقق له التفاف فئات واسعة من الرأي العام الإسرائيلي، وانضمت إلى برنامجه التدميري.

أرباح شارون المشار إليها كانت من وعلى حساب رصيدنا ورصيد شرعية وأخلاقية نضالنا، وبالتالي لا أستطيع أن أتجاهل- وببساطة- أننا خسرنا خسارة صافية، وربح هو ربحاً صافياً. فقد بدأنا نخسر سياسياً نتيجة هذه العمليات، وصارت أفعال شارون الإجرامية من وجهة نظر العديد من الأطراف الدولية المؤثرة والفاعلة، بما فيها بعض الإطراف الصديقة، مجرد ردود فعل على العمليات الانتحارية الفلسطينية، ناهيك بالطبع عن اعتبارها من البعض دفاعاً مشروعاً عن النفس.

وبدل أن نتوقف ونقيم هذه الأعمال لنثبت للعالم أن شارون هو المعتدي صارت هذه العمليات أيقونة مقدسة يحظر مسها، بل إن نوعاً من المنافسة اجتاح الفصائل لتنفيذ أكبر عدد ممكن منها. للأسف أصبحنا نكرر العمليات، وبالتالي خسرنا حدودنا التي يمكن أن نحتج بها أمام العالم بأننا ضحايا.

من كل ما ذكر أخلص إلى القول إن تسليح الانتفاضة كان خطأ فادحاً، لأننا دخلنا في حرب مع إسرائيل في مناطق قوتها، وليس مناطق ضعفها، وأقوى ما لديها هو السلاح الذي هو أضعف ما لدينا.

وعلى ذلك فقد ارتكبت في هذا السياق عدة أخطاء يمكن حصرها في اثنين:

أولاً: لم يكن من الصحة في شيء التخلي عن الطابع الشعبي والمشاركة الجماهيرية للانتفاضة حيث تكمن قوتنا، ويكمن ضعف إسرائيل. والدعوة إلى ملاقاتها في مجالات تفوقها، أي في ميدان القتال العسكري.

ثانياً: قدمنا خدمة جليلة -حتى لو صدقت وحسنت النوايا، فالطريق إلى جهنم مفروشة بالنوايا الحسنة- لحكومة رافضة للسلام، وتتستر خلف هذه العمليات لتخفي حقيقة أنها لا تريد السلام وتناصبه العداء. وتمت إعادة تظهير صورتنا في وسائل الإعلام ولدى أوساط واسعة في العالم وترويجنا كأننا نحن من يرفض السلام، ونريد تدمير إسرائيل، أي أعيد تقديمنا وبمساعدة مشهودة من بعضنا (كإرهابيين).

بعد أن بدأت السلطة والقيادة الفلسطينية تتلمس النتائج الوخيمة التي ترتبت على عسكرة الانتفاضة وتنفيذ العمليات الانتحارية، دعت إلى وقف إطلاق النار، لكن لم يسمع صوتها أحد. وفي مراحل لاحقة اضطرت إلى إدانة هذه العمليات. ولكن بعد وقت طويل، وبعد أن أصبحت السلطة عاجزة عن مواجهة هذه العمليات أو توقيفها، خاصة بعد الاجتياح وما نجم عنه من تدمير شبه تام لأجهزتها الأمنية والمدنية، ودخل المشروع الإسرائيلي لتدميرها نهائياً مرحلة جديدة نوعياً، إذ لاحت في الأفق فرصة نادرة لشارون، كي يتخلص من اتفاق (أوسلو) وتدمير نتائجه، فاستباحت أراضي السلطة فصار دخولها وخروجها أمراً اعتيادياً، ثم دمرت بنيتها التحتية، والطريف في الأمر- وبعد كل الذي جرى- مطالبة السلطة القيام بواجباتها.

المفارقة غريبة وجارحة ولا تقف عند هذا الحد، فهي غريبة، لأن المنظمات والفصائل تنفذ العمليات العسكرية باختلاف أنواعها لحسابها، وتطالب السلطة أن توفر لها الحماية والدعم والمساندة، وجارحة لأن الفصائل تنفذ والسلطة هي من يدفع الثمن باهظاً، وعلى سبيل المثال لا الحصر نسمع محتجاً كخالد مشعل (رئيس المكتب السياسي لحركة (حماس) -المحرر-) يقول: (إذا لم تستطع السلطة توفير الحماية فلترحل، وعملياً هو الراحل وهو الهارب)، كذلك الأخوة في الجبهة الشعبية نفذوا عملية قتل رحبعام زئيفي (وزير السياحة الإسرائيلي) وخرج علينا ناطقهم الرسمي ليقول: (عادوا إلى قواعدهم في رام الله سالمين)، وبعد ذلك يريدون من السلطة أن تحميهم..!!

الانتفاضة تبعث رسائل ولا تحقق نصراً

س: البعض رأى في العمليات الانتحارية سبيلاً، وأداة لخلق نوع من توازن الرعب في ضوء الخلل في موازين القوى قد يحمل إسرائيل على المساومة والبحث عن حل سلمي للأزمة.

هذا أولاً، وثانياً: هل السلطة بريئة من تهمة دفع الانتفاضة إلى أطوارها العسكرية؟ ثم ألم تكن قادرة على اتخاذ القرار في الوقت المناسب لوقف العمليات العسكرية؟ ألم تشارك السلطة ورئيسها نفسه من خلال إطلاق الشعارات الحماسية الملهبة لمشاعر الجماهير في عسكرة الانتفاضة؟

ج) مرة أخرى لنعد إلى أصل الأشياء. أي هدف تريد الانتفاضة تحقيقه ؟ أليس الاستقلال، هل حققته ؟ لا يهمني الحديث عن توازن رعب أو توازن خوف، ما يهمني تحرير القدس، توقف الاستيطان، فرض الانسحاب على جيش الاحتلال من جميع الأراضي الفلسطينية.

لكن الذي حدث بعد عشرين شهراً أن الإنجازات التي حققتها الانتفاضة في أشهرها الأولى انتهت، فالبنية التحتية التي إقامتها السلطة دمرت، السلطة ذاتها كإنجاز وطني شبه مدمرة وعاجزة ومشلولة هنا في الضفة الغربية، وقد تلقى المصير ذاته في غزة، إذا ما قيمة أي حديث عن توازن الرعب وغيره من مقولات لا تسمن ولا تغني من جوع.

لقد حذرت منذ البداية، وعلى وجه التحديد قبل عام او اكثر من تحميل الانتفاضة أكثر مما تحتمل من مهمات وأهداف. وفي هذا السياق، قلت إن الانتفاضة قادرة على أن توصل رسائل.. رسائل الشعب الفلسطيني إلى العالم أنه لم يعد بمقدوره التعايش مع الاحتلال، والاستيطان، والسجون والقمع، وهدم المنازل وانتهاك كرامته، وغيرها من إجراءات تعسفية لا تحتمل ولا تطاق، ويرفضها القانون الدولي، وتأباها الشرعة الإنسانية. نعم كان في وسعها أن توصل مضامين جميع هذه الرسائل بيسر ودون الكلفة المرتفعة التي دفعها الشعب الفلسطيني دماً ودماراً وخراباً، لكن لم يكن في وسعها بأي حال من الأحوال وفي ظل الظروف والشروط الراهنة التي اندلعت فيها أن تحقق نصراً.

بالطبع وأنا أتحدث عن لماذا ضلت الانتفاضة طريقها، وخرجت على مسارها، لن أنسى بعض عوامل الضغط الخارجية، فكثير من الدول العربية والإسلامية لعبت دوراً في ذلك، أرادت أن تحارب إسرائيل بنا، أو كما يقال أن تحاربها حتى آخر فلسطيني، وتحقق بنا ومن خلالنا ما عجزت عن تحقيقه جيوشها. وفي المقام ذاته فقد لعبت وسائل الأعلام، خاصة المحطات الفضائية العربية، دوراً في تهييج مشاعر الناس، وتقوية الاتجاهات الفلسطينية المغامرة على حساب التيار العقلاني.

أما بخصوص السلطة الفلسطينية، فعجزت عن توضيح الموقف الصحيح الذي يستجيب للمصلحة الوطنية العليا، أي أنها لم تستطع شق طريق آخر وتعمل على إقناع الجمهور به، وبهذا المعنى لم تنج من الخضوع لابتزاز الأيقونة المقدسة (العمليات الانتحارية). ومع ذلك كان ممكناً في لحظة معينة أن تتحمل مسؤوليتها، وتعمل على سحب أي ذرائع من يد شارون لارتكاب جرائمه بحق الشعب الفلسطيني وأرضه.

ضاعت الفرصة...!!

س: ١١ أيلول/سبتمبر من العام ٢٠٠١ لحظة فاصلة في التاريخ السياسي والعلاقات الدولية غير وجه العالم. أي أن العالم قبل هذا اليوم غيره من بعده.

إذا سلمنا بالاستنتاج السابق، يصح السؤال لماذا لم تلحظ السلطة الفلسطينية هذا التطور بالغ الأهمية والخطورة في سياستها العملية، أي لماذا لم تدرك ان الحرب العالمية على (الإرهاب) ستطالها إذا لم تغير وتبدل في تكتيكاتها النضالية ؟ وإذا كانت مدركة لهذا التغير الكوني، وقد سمعنا من الرئيس ياسر عرفات وغيره ان السلطة مستعدة للانخراط في الحلف الدولي لمحاربة (الإرهاب)، ومع ذلك بقي كل شيء على حاله، وبالتالي اغتنم شارون الفرصة ليدفعنا إلى الدخول بأرجلنا، ولكن دون إكراه، إلى قفص الاتهام بـ (الإرهاب) ؟

مرة أخرى لنعد إلى أصل الأشياء. أي هدف تريد الانتفاضة تحقيقه ؟ أليس الاستقلال، هل حققته ؟ لا يهمني الحديث عن توازن رعب أو توازن خوف، ما يهمني تحرير القدس، توقف الاستيطان، فرض الانسحاب على جيش الاحتلال من جميع الأراضي الفلسطينية.

ج- نعم العالم ما قبل ١١ أيلول شيء وبعده شيء آخر ومختلف نوعياً. وإنصافاً للحقيقة وانتصاراً للموضوعية على الإشارة إلى أن السلطة وغيرها من المنظمات والهيئات الرسمية شعرت بضرورة إجراء وقفة أمام هذا الحدث الكبير، وقد اتخذ قرار واضح بأننا ندين ما حدث. فهو جريمة بشعة بكل المقاييس ونوع من الإرهاب لا سابق للذاكرة الإنسانية بشبيه له، وبالتالي لا يمكن إلا أن نكون مع محاربة الإرهاب، وهذا ما جعل أمريكا آنذاك أن تأمر شارون بالخروج من أريحا وجنين عندما دخلهما. وبعد ذلك طلب منه أن يصمت ولا يتكلم. وقال بوش في الوقت ذاته صفقوا لياسر عرفات بعد أن أعلن إدانة السلطة الفلسطينية الإرهاب، وتبرع بالدم للضحايا أمام عدسات التلفزيون والصحافيين، وبهذا لاحت في الأفق فرصة لوصل ما انقطع بيننا وبين الإدارة الأمريكية.

س: كيف ضاعت هذه الفرصة، ولماذا؟

ج: هذا سؤال كبير، وأنا على يقين وقناعة تامة بأن جميع الفصائل والتنظيمات الفلسطينية برئيه من تهمة الإرهاب، وكان بالإمكان حمايتها في ذلك الوقت، وإذا عقدنا مقارنة بسيطة بين ما كنا عليه آنذاك وما صرنا إليه اليوم، فإن الوضع الآن في غاية السوء، إذ إن حركة حماس والجبهة الشعبية وحركة الجهاد الإسلامي وفتح.. جميعها اليوم تتصدر لوائح الإرهاب السوداء في العالم.

وفي التفصيل، لابد من الإشارة أيضاً إلى أنه كان بإمكاننا أن نستمر في الخط سالف الذكر، أي إدانة الإرهاب قولاً وعملاً، وان نعيد صياغة وضعنا الداخلي على أساس المتغيرات التي أعقبت ١١ أيلول، وبالتالي نفوت الفرصة على شارون وأن نسجل في رصيدنا آلف نقطة على حسابه.

وأنا على قناعة بأن العالمين العربي الإسلامي كانا بانتظار كلمة من ياسر عرفات حتى يسيروا وراءه. وقال ياسر عرفات الكلمة، إذ أعلن على رؤوس الأشهاد إدانته لما حدث واستعداده لمحاربة الإرهاب، وبالتالي كنا قبالة الفرصة التاريخية والذهبية ليس بالنسبة لنا كسلطة فحسب، ولكن للوضع الفلسطيني برمته شعباً وفصائل ومؤسسات، وهو ما يؤذن بالدخول في مرحلة جديدة نوعياً تضع حداً فاصلاً لدائرة العنف وتكسرها، ونعود للجلوس إلى طاولة المفاوضات، وهذا طبيعي، ففي نهاية كل حرب هناك طاولة للمفاوضات.

وفي هذا السياق، لن يفوتني أن أشير إلى أننا هنا في فلسطين لسنا معنيين لا بتنظيم «القاعدة» ولا بزعيمه أسامة بن لادن، ومن بعدهما حركة «طالبان»، فجميع هؤلاء لا علاقة لهم بالشأن الفلسطيني، ولم تكن يوماً القضية الفلسطينية مدرجة على جدول أعمالهم، إلا بعد أن بدأت الحملة الأمريكية والعالمية عليهم، وبهذا المعنى ففلسطين ليست سوى قميص عثمان الذي أرادوا تعليق فعلتهم عليه، أي أننا لم نكن يوماً لا سلطة ولا فصائل مرتبطين بأية علاقات او روابط مع هؤلاء الناس.

وبهذا المعنى لم يكن هناك ما يلزمنا بشيء تجاههم، ولكننا للأسف أضعنا هذه الفرصة. أضعناها أنه كان يجب ان نوقف العمليات الانتحارية وعسكرة الانتفاضة، وان نستمر كشعب يواصل احتجاجه على الاحتلال والاستيطان وجميع الإجراءات الإسرائيلية الغاشمة دون أن نخشى في ذلك لومة لائم.

ولكن ما حصل هو أن بعض القوى تابعت طريقها وأسلوبها، ولم تأبه للنتائج الكارثية المترتبة على أفعالها، ما يدعو للهتاف أن وراء الأكمة ما وراءها، ويحضرني في هذا المقام واقعة أود تثبيتها لما لها من دلالات: لقد قابلت ثلاثة من قادة حركة (حماس) قبل الذهاب إلى قمة كامب ديفيد بناء على طلبهم، وسألوني إلى أين أنتم ذاهبون ؟ فأجبتهم : ذاهبون لجلب ٢٤٢ و٣٣٨ ، ونقطة وأول السطر.

ومعنى ذلك أننا ذاهبون لتحصيل انسحاب إسرائيلي إلى حدود الرابع من حزيران العام ١٩٦٧. وأضفت: ربما تجري تعديلات حدودية بسيطة متبادلة في الكم والنوع والقيمة، وأننا لن نتنازل عن حق اللاجئين في العودة، والقدس لا تنازل عنها وهي عاصمة دولتنا المستقلة، وأي استيطان في أرضنا لن نقبله، وقلت لهم أيضاً من واجبكم أن تؤيدونا حتى ننتهي من استحقاقات هذه المرحلة، وعندها لكم الحق في محاربتنا سياسياً وإعلامياً وجماهيرياً وديمقراطياً، وإذا نجحتم تسلموا السلطة، ولكن دعونا الآن نكمل هذه المسيرة. وتساءلوا: وإذا تنازلتم، فقلت: سأعطيكم كلمة شرف لن نتنازل عن أي حق من حقوقنا. وعندما عدنا من كامب ديفيد أرسلت لهم برسول ليبلغهم أننا لم نتنازل. وكنت واضحاً معهم بأنه إذا عندكم مشروع سياسي مغاير فاطرحوه، ولكن إذا كان مشروعكم هو الاستيلاء على السلطة، فهذا موضوع آخر، ومشروع آخر.

شارون دمر اتفاق (اوسلو)

س: قلت في حديثك إن أحد أهداف شارون تدمير اتفاق (اوسلو)، هل حقق هذا الهدف، وهل له أهداف أخرى، وإن وجدت فهل تحققت ؟

ج) نعم تحقق هدفه الأول إلى حد ما، فقد دمر معظم إنجازات السلطة، وأعاد احتلال المناطق المحررة «مناطق (أ) وتشمل جميع المدن الفلسطينية في الضفة الغربية - المحرر»، وإلغاء التنسيق في مناطق (ب)، إضافة إلى تدمير البنية التحتية، التي أقامتها السلطة لتجاري متطلبات الدولة القادمة، كالصحة، والتعليم...الخ.

وباختصار غير مخل، لقد حقق شارون معظم أهدافه، ودمر وقتل، وشل السلطة، وها هو يتحدث عن بدائل لها والقيادة الفلسطينية.

س: من هي القوى أو القوة المؤهلة كي تكون بديلاً للسلطة ؟

ج: قد يكون هناك أناس مستعدون لهذا. ولكن سيظهرون في عيون الشعب كخونة.

س: هل من بينهم حماس ؟

ج: أنا لا أحكم على النوايا، بل على الممارسات! ولكنني أتساءل: لماذا هذه العلميات الانتحارية وقتل المدنيين في التجمعات السكانية الإسرائيلية، أريد سبباً واحداً مقنعاً لهذه العمليات.

س: لقد وقعت مجزرة مريعة في مخيم جنين، أثارت اشمئزاز العالم بأسره، ومع ذلك لم تستطع الأمم المتحدة إرسال لجنة تحقيق، ما هي الأسباب، ولماذا ضاعت مرة أخرى فرصة فضح إسرائيل حتى عندما ارتكبت جريمة بهذه الفظاعة؟

ج: نعم، ضاعت فرصة أخرى، بل فرصة تاريخية كي تحضر لجنة دولية للتحقيق في هذه الجريمة، وأحد أسباب ضياعها بعض ردود الفعل التي نفذها بعضنا.